مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الدُّخَان

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الدخان

أ . د . خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الدخان

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ابتدأت سورة الدخان بِمِثْلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. كما تماثلت افتتاحيتها بسورة غافر، وسورة فُصِّلَت، وسورة الشورى، وسورة الزخرف وكذلك بما بعدها، من سورة الجاثية، وسورة الأحقاف. فبدأت بقوله تعالى ﴿ حمٓ ﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[1] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعــوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله سبحانه وتعالى سورة الدخان بحرفين من الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ حمٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، عطف عليها بعد ذلك بيان وضوح وفصاحة القرآن، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ قَسَمٌ من الله تعالى بأن القرآن واضح جلي في ذاته، ومُوضح لما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين وشؤون الدنيا والآخرة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قَسَمٌ من الله تعالى، أقسم بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فقال ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ لمن تدبره وفكر في عبره وعظاته، هداه وأرشده، ودله على أنه تنزيل من حكيم حميد، لا اختلاق من محمد صلى الله عليه وسلم، ولا افتراء من أحد[٣] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل: ﴿ حمٓ ﴾ قسم. ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ قسم ثانٍ. ولله أن يقسم بما شاء[٤] بما يفيد تعظيم القرآن العظيم وإجلاله من الله العزيز الحكيم. وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي: إن القرآن الذي أنزله ربكم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله سبحانه وتعالى، المتصف بكمال البيان في مضمونه، ونظمه، ولكل ما يحتاج إليه الإنسان في الدين والدنيا والآخرة، مما يفيد: عليكم بالتزامه، وشكر ربكم على هذه النعمة العظيمة الجليلة.

---

(١) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٥/٢٠)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/١٦)

وقوله تعالى ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ هو بيان وتأكيد وجزم من الله العزيز الحكيم، فيبطل به كل دعوى تنفي أنه ليس من عند الله تعالى، إذ أوضح سبحانه وتعالى أن دليل ثبوته من نفسه، فهو كتاب مبين ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ فاقرءوا مضمونه لتدركوا من بيانه أنه ليس إلا من عند الله تعالى العزيز الحكيم، لما فيه من إعجاز البيان، وقوة بلاغته، وجزالة ألفاظه، وتشريعه الحكيم، وما تضمنه من الأحكام، وما فيه من المواعظ والعبر، والأخبار عن أحوال الأمم السابقة، وما تناوله من الحلال والحرام، وما فصله من مكارم الأخلاق، وما فيه من تفصيل شأن هذا الإنسان، علاوة على بلاغة بيانه، وجزالة ألفظه، فهو كتاب إعجاز بما انفرد به، بل وأعجز أن يأتي أحد بمثله، ولو بسورة أو آية من مثله.

وقد أفرد سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه كتاب، ليفيد أنه مفرد من جنس الكتب، إلا أنه لا مثيل له بما انفرد به. فإفراده باسم ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ يعني إذا قيل: الكتاب. فلا يعني إلا هو القرآن العظيم لا غيره، لعظمته وجلالته. وأفادت دلالة ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أنه مكتوب، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في المصاحف، وكذلك دل ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ على أنه المنفرد من بين جنسه بهذه المواصفات العظيمة. فإذا أفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن العظيم. بما انفرد به من كمال إعجازه وكمال صوابه وحجته وبيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه شيء من الظلم ولا الحيف ولا الشطط، بل كمال العدل الذي يُحق الحق ويُبطل الباطل، كما أن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، بما يثبت أنه صِدْقٌ وحقيقة من الله تعالى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يُلحق الله سبحانه وتعال بهذا القسم الْمُقْسَم عليه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ فأقسم الله تعالى بالكتاب الواضح المبين على إنزاله ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ أي: أنزلنا القرآن العظيم من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم خلال ثلاث وعشرين سنة، التي هي مدة بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ التي هي ليلة القدر، كما قال تعالى في سورة القدر ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ ﴾ التي هي خير من ألف شهر. وهو قول الأكثرين، كما قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنها ليلة القدر، وهو قول الأكثرين. وروى عكرمة عن ابن عباس، قال: أُنزل القرآن من عند الرحمن ليلة القدر جملة واحدة، فوضع في السماء الدنيا، ثم أنزل منجماً. وقال مقاتل: نزل القرآن كله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا[١] فحظيت هذه الليلة بالمنزلة الرفيعة الكريمة بسبب نزول

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١١١-١١٢)

القرآن فيها، ليدل على شرف منزلة القرآن الذي تشرفت به تلك الليلة من بين تلك الليالي، بما يفيد أن كل من اعتنى بالقرآن الكريم فقد حظي بشرفه.

فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الليلة بأنها ﴿ لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾ فخصها سبحانه وتعالى بشرف بركة ومنزلة هذا القرآن العظيم، فإنها مباركة بنزول هذا القرآن العظيم. مما يدل على بركة هذا القرآن العظيم، وبركة من أخذ به، ومن اعتنى به، فقد أصبحت هذه الليلة من بين جميع الليالي بهذه الخاصية من الشرف والبركة. فإنها ليلة كثيرة الخير والخصال والفضل من الله تعالى، بل استمر الاحتفاء بها من الله تعالى إلى أن جعلها تتجدد وتتكرر في كل سنة من شهر رمضان. فزامن سبحانه وتعالى بين أفضل الكتب، وأفضل الكلام مع أفضل ليلة في الزمان، وعلى أفضل الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، وعلى أفضل لغة، وهي اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم. وبذلك قد أعطت الآية الكريمة العديد من الفوائد.

ومن دقائق البيان أن ابتدأ كلام الله عَزَّ وجل بضمير المتكلم ﴿ إِنَّآ ﴾ الذي يفيد التعظيم والتبجيل، والقوة والعزة والتأكيد. ثم أكد ذلك أيضا بإسناد الضمير مرة أخرى في إنزال القرآن العظيم إليه سبحانه وتعالى ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ وذلك لبيان المزيد من التفخيم والتعظيم والإجلال، والتأكيد بأن الإنزال منه سبحانه وتعالى، وأنه كتاب للناس من ربهم عَزَّ وجل. وقد عَيَّنَ بالتحديد والقصر أنه منزل في ليلة مخصوصة بالبركة ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ ﴾ فإنها ليلة مخصوصة بالحفاوة من البركة، بما يدل على عظيم منزلة القرآن، ليتبين بذلك منزلة ورفعة وبركة من أخذ بهذا القرآن العظيم، واعتنى به، كما يدل على بركة من أُنزِل عليه هذا القرآن، وهو النبي المخصوص بالإنزال لهذا الكتاب العظيم، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وكذلك منزلة هذه الأمة.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى بإنذاره العباد بهذا القرآن العظيم وبهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وبهذا الدين العظيم. فقال تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ إنا بهذا القرآن العظيم وبالرسول صلى الله عليه وسلم، وبهذا الدين منذرين الناس بما نخبرهم به، ونعلمهم من البيان الواضح الموضح لطريق الحق، وطريق الضلالة، والمنذر من عذابنا لكل من جحد وكفر. فإن الغاية هي هداية الناس للخير، بالترهيب بعد الترغيب الذي أقسم الله تعالى به في مطلع السورة من المدح والثناء على هذا القرآن الكريم وبركته ومنزلته، بأنه مُنَزَّلٌ من لدنه سبحانه وتعالى، في ليلة مباركة. فهو كمال الثناء والتعظيم للقرآن الكريم، وعلى هذا الدين العظيم، وعلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعلى من أخذ به.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى توضيح منزلة هذه الليلة بما يكون فيها من الخير، وبما خصها الله تعالى مما يقضي به من القضاء في شأن العباد، فقال عَزَّ وجل ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ في هذه الليلة المباركة

يحقق ويقضى سبحانه وتعالى جميع ما يراد قضاؤه في شأن العباد ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ ﴾ أي: يُفصَل ويوضح ويبين ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أي: كل شأن وقضاء مُحكَم، فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر. وهو الأمر والشأن المحكم، فيكتب سبحانه وتعالى فيها ما يكون في تلك السنة، من الآجال والأرزاق، ومقادير الخلائق، وأحوالهم. قال رجل للحسن: أرأيت ليلة القدر! أفي كل رمضان هي؟ قال: نعم. والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي كل رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، يقضي الله كل أجل، وعمل، وخلق، ورزق، إلى مثلها[١] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: في ليلة القدر يُفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد والضحاك، وغير واحد من السلف[٢] فيكتب فيها ما يكون من شأن السنة، من حياة وموت، وخير، وشر، ورزق، ومن البسط والقبض والتقدير، وغير ذلك من شؤون العباد.

ثم يؤكد تبارك وتعالى أن هذا الأمر الحكيم المحكم هو أمر صادر من لدنه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ فهو أمر حكيم من لدنا، بما يفيد عظمة هذا الأمر المحكم الذي أحكمه الله تعالى، بما يبين كمال قدرته، وقوة سلطانه عَزَّ وجل، وهيمنته سبحانه وتعالى على كل شيء، فهو القاهر فوق عباده، مما يُوجب طاعته والإذعان له تبارك وتعالى. ثم قال جَلَّ في علاه عن إرساله الرسل سبحانه وتعالى، وإنزاله الكتب ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي: فقد أرسلنا المرسلين لعبادنا، لتبلغهم دين وشريعة ربهم تبارك وتعالى. بما يفيد: لتقوم الحجة على العباد، فمن أطاع دخل الجنة، ومن كفر دخل النار، فلا يلومن كل أحد إلا نفسه.

ثم يبين جَلَّ جلاله أن ذلك الإرسال للمرسلين هو من رحمته بعباده، فقال تبارك وتعالى ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فإن إرسال الرسل، وإنزال الكتب هي ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ للعباد، أيها الرسول، من أجل هدايتهم، وإرشادهم وتعليمهم الطريق المستقيم الذي يحصل به فوزهم ونجاتهم في الدنيا وفي الآخرة. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إن الله تبارك وتعالى هو لا غيره الذي يسمع كل شيء، ويعلم بكل شيء، فلا يفوته شيء. بما يفيد شمول كمال السمع والعلم لربنا تبارك وتعالى، بحيث لا تخفى على الله عَزَّ وجل خافية. وسواء ما كان، أو ما سيكون. فهو يسمع كلام عباده، وكلام كل متكلم، وحركة كل متحرك، ويعلم ما هو منكم، بما يؤكد إحصاء ذلك وإثباته.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧/٢١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٨/٤)

وقد وردت هنا صفتان لله تعالى ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بأكمل وجه، وأتم بيان، بل جاءت بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء، ومنه ما يكون منكم من جميع الأقوال والأعمال. بل وحصرت وقصرت كمال السمع والعلم عليه سبحانه وتعالى، فلا يشاركه أحد في كمال السمع والعلم. فإن الله تعالى يسمع ويعلم ما قيل، وما يُقال، ويعلم ما توسوس به النفوس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مطلع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، ومن غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى صارف عنه ما يخاف من الشر، ويجزيه على ما يعمل من الصالحات، وما يمتنع عنه من المعصية.

وإذا علم وأيقن الإنسان أن الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ جعله ذلك العلم العظيم، شخصاً ملتجئاً إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، لأنه مُوقن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يعينه هذا العلم والفهم على استحضار مراقبة الله تعالى له ولغيره في جميع تصرفاته وأحواله، وأن الله تعالى يراه على كل حال يكون عليه، مما يدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له إن حاد عن الطريق. وأيضاً هو به عليم بما يعمل من الصالحات والطاعات. فهو موقن بأن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإنه عِلمٌ يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويمنعه عن الشر.

ثم يخبر سبحانه وتعالى ما يبين ويؤكد عظمته عَزَّ وجل، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ فإن ربكم هو رب الكون كله فإن لربكم سبحانه وتعالى كمال الربوبية وكمال الملك، فهو ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ وقد جمع قوله عَزَّ وجل ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ جميع الخلائق بأكملها. فقد تضمنت دلالة ﴿ رَبِّ ﴾ أنه المألوه والمالك، والقائم على شأن ملكه. لتفيد في حق الله تعالى: الإيجاد والتكوين والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما حملت وما حوت، وما فوقها. كما جمعت كلمة ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ جميع ما ارتفع مما يشاهده الإنسان وما لا يشاهده، مما غاب عنه، فمما يشاهده الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما لا يراه كالملائكة، وما يحسه الإنسان ولا يراه كالرياح والهواء، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، لقصور حواسهم عنه.

وأما دلالة ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدُبُّ عليها وما يجري فيها، وما بداخلها، وما يخرج منها، وما يُستخرج منها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، والمعادن وأنواعها، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا

يعلمه إلا الله تعالى. وأكدت كلمة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما يراه الإنسان ومما لا يراه، ومما يحسه ولا يراه كالهواء.

ومن دقائق البيان: أن كل شيء ارتفع عن الأرض فقد سما، فهو داخل في السماء، إلا أن الله تعالى خص ما بين السماء والأرض بالذكر ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ للفت الانتباه بالتخصيص. فخص تلك الأجرام بالذكر لما فيها من عجائب قدرته. فقد استقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، كما ارتفعت عن الأرض فلم تعتمد عليها. كالسحاب، والكواكب، والشمس، والقمر، والهواء الحار، والهواء البارد. فإنها متعلقة بين السماء والأرض. فإن في ذلك بيان لعظمة الخلق، وعظمة التدبير والإبداع، والعظمة في البيان، والعظمة في أسلوب التعليم، فسبحان الله تعالى الذي سَيَّرَ بعض مخلوقاته بين السماء والأرض بقدرته، وعظيم إبداعه.

ثم يختم الله تعالى هذه الآية بالنتيجة التي يجب أن تتقرر عند العباد بعد أن علموا كمال ملك ربهم سبحانه وتعالى، وعظيم سلطانه، وحكمة تدبيره. فقال تعالى ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فإن كنتم مصدقين فأظهروا صدقكم بالطاعة والامتثال. أي: فإن كنتم قد أيقنتم بأن الله تعالى هو رب السماوات والأرض وما بينهما، فيلزمكم توحيده في العبادة، ونبذ الشرك، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد أعقب بيان انفراده سبحانه وتعالى بالربوبية للخلق كله أعقبه ببيان ما يستوجب ذلك من انفراده بالألوهية. فقال سبحانه وتعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فربكم هو الله الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى. بما يدل على بطلان جميع أنواع الشرك. فإنه لا معبود بحق، ولا رب ولا مالك للكون كله إلا هو تبارك وتعالى. وهذا بيان بانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقرر عَزَّ وجل أنه المعبود وحده لا شريك له، وذلك بحصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله غيره، فنفى كل إله ومعبود غيره سبحانه وتعالى، وحصر العبودية فيه وحده لا شريك له. فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن مَنْ عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل.

وقد تضمنت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي الألوهية عن غيره عَزَّ وجل ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فلا إله غير الله تعالى، وأفاد هذا النفي: القطع والجزم بأنه لا ألوهية لأحد غيره سبحانه وتعالى، ثم حصر الألوهية له عَزَّ وجل ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه عَزَّ وجل.

وجملة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تُعَلِّم العباد بأن العبادة لا تُصرف إلا له عَزَّ وجل، وبالتالي لا تصلح العبادة إلا له وحده لا شريك له، فعليكم أيها الناس بعبادة ربكم وحده لا شريك له. وأنه هو المتفرد بالإحياء والإماتة، فقال تعالى ﴿ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فهي له وحده لا شريك له. فإن من كمال قدرته جَلَّ في علاه أنه هو الذي بإرادته وقدرته يحي ويُوجِد ما يريد من العدم، ويميت ويُفني بعد الإيجاد وحصول الحياة. فهو المتصرف في الحياة والموت وحده لا شريك له. فانتقل السياق الكريم إلى بيان كمال قدرته في الإحياء والإماتة، بأنها له وحده لا شريك له، وليس لغيره الإحياء والإماتة، فهي خاصة به تبارك وتعالى ﴿ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فهو الذي أحياكم أول مرة بالإيجاد، وهو الذي يميتكم، وبالتالي كما أحياكم أول مرة، ثم يميتكم، فكذلك يحيكم من قبوركم، ثم إليه تحشرون. فأظهرت وقصرت الآية الكريمة فعل الإحياء والإماتة على الله سبحانه وتعالى. فربكم وحده هو الذي ﴿ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ وذلك كونها فعل من أفعال الله تعالى. ليكون وقعها في النفس أعمق في هذا البيان. ولتفيد كمال التصرف في الحياة والموت بأنه لله عَزَّ وجل.

فقد أخبر جَلَّ جلاله بما هو متعلق بحياة العباد ﴿ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فهو وحده الذي يملك الإحياء، ويملك الموت، بما يفيد أنه سبحانه وتعالى هو المتصرف في وجودكم، وإيجادكم، وإماتتكم، وإحيائكم بعد موتكم، وذلك يوم البعث والنشور، للحساب والجزاء. فكما هو ﴿ رَبُّكُمۡ ﴾ الذي أوجدكم، فهو كذلك رب من سبقكم من الأولين ﴿ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: السابقين لكم. وفي هذا لفت الانتباه إلى أن مصيركم هو مصير السابقين لكم، فلن تبقى الحياة لكم، فاتعظوا بمن سبقكم.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما يجب أن يكون عليه العباد من اليقين بدلاً عما هم فيه من الشك، فقال تعالى ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴾ بل إنهم في شك من البعث، ومن توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وترك الشرك. وبعد تقرير حالهم من الشك، يبين سبحانه وتعالى حالهم في التعارض والتناقض، أي: بين ما يقرون به من أن الله تعالى هو الخالق، وبين شكهم وعدم يقينهم من البعث، فأصبح حالهم هو أنهم ﴿ يَلۡعَبُونَ ﴾ فهذا الحال منهم ما هو إلا حال المتلاعب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون. أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه، ويمترون ولا يصدقون[1] فحالهم يعطي أنهم قوم يلعبون بتناقضهم مع ما يقرون به من الخلق، وما ينكرون من القدرة على البعث.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٩/٤)

وقد بدأ البيان الكريم بحرف ﴿ بَلۡ ﴾ الذي نفى به اليقين عنهم، ليثبت ما بعده وهو الشك، كصفة لحالهم التي هم عليها، بأنهم في شك ومرية، بما يفيد أن إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق لم يتحقق به مما يجب أن يتبعوه من توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، والإيمان بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء. مما يفيد قوة عنادهم للحق، بسبب استكبارهم. فأصبح حالهم هو حال المتلاعب، الذي يُقر بأمر وهو الخلق ويخالف مستلزماته من التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، والإيمان بالبعث، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

بعد أن أخبر تبارك وتعالى عن حقيقة امتناع من امتنع عن الإسلام من المشركين، وذلك بسبب أنهم في شك يلعبون، يخبر تبارك وتعالى بعد ذلك بما يترتب على شكهم الذي يتلاعبون به، فيقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ فانتظر لهم يا أيها الرسول حين تأتي السماء بدخان ظاهر واضح بائن، فلا يشك فيه أحد. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن موعد الدخان: قد ثبت في الصحيح أنه من جملة العشر آيات التي تكون قبل قيام الساعة[١] وذكر الأقوال الأخرى، التي ذكرها علماء التفسير، ومنهم ابن الجوزي رحمه الله تعالى، وهي ثلاثة أقوال: أحدها: أنه دخان يجيء قبل قيام الساعة. والقول الثاني: أن قريشاً أصابهم جوع. فكانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من الجوع. والقول الثالث: أنه يوم فتح مكة، لَمَّا حُجِبَت السماء بالغبرة. حكاه الماوردي[٢] ورجح ابن عاشور رحمه الله تعالى أنه الأمر الحادث القريب الذي حصل لهم. فقال رحمه الله تعالى: والكلام يؤذن بأن هذا الدخان المرتقب حادث قريب الحصول، فالظاهر أنه حدث يكون في الحياة الدنيا، وأنه عقاب للمشركين. وأضاف أيضاً: والأصح أن هذا الدخان عُني به ما أصاب المشركين من سني القحط بمكة، بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة[٣] والذي يظهر

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٧١/٤)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٢/٧-١١٣)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢٨/١٠)

أن دلالة الآية الكريمة شملت جميع تلك الأحوال، التي حصلت، والتي ستكون من علامات يوم القيامة، وهذا من قوة استيعاب الآية الكريمة لمراد الله تعالى من الأحوال الثلاثة، فاستوعبت الأقوال كلها.

ثم يوضح تبارك وتعالى ذلك اليوم من خلال توصيف حاله، وحال الناس فيه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فإن هذا الدخان يحيط بالناس إحاطة تامة، فيغشى أبصارهم، فلا ترى ما كانت تراه. وفي كونه عام للناس جميعاً ما يَرجَح أن المقصود به يوم القيامة، وإن جاز أنه يستوعب، تلك الأحوال والأزمنة المذكورة آنفاً، فيكون المقصود بالناس على الأوجه والحالات الأخرى هم المشركون، ثم ما يكون عند قيام يوم القيامة. ثم يصف الله تعالى بأنه عذاب منه سبحانه وتعالى ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فهو عذاب شديد في أثره وقوته، فيحصل منه الألم الشديد للكافرين. وفي كونه عذاب أليم يدل على أنه خاص بالكافرين، ولا يدخل فيه أهل الإيمان، ليشمل ما يكون من آيات يوم القيامة، وأيضاً ما كان خاصاً بالمشركين.

ثم يطلب الناس من الله تعالى أن يرفع عنهم هذا العذاب، ويذعنون ويعترفون بكل ما أنكروه، فقال تعالى عنهم أنهم يقولون ذلك الحين، وذلك الوقت ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾ فينادون، بقولهم: ﴿ رَّبَّنَا ﴾ وهو نداء استجداء ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ ﴾ يا ربنا أزل وارفع عنا هذا العذاب ﴿ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾ قد آمنا بكل ما أنكرناه وكذبنا به. ولكنه إيمان وتصديق بعد معاينة العذاب، فلا ينفعهم إيمانهم. مما يفيد الإنذار والتحذير من الله تعالى للعباد بكل ما سيكون قبل أن يكون. وهذا من رحمته بعباده، لأن مراد الله تعالى من عباده هو أن يطيعوه، فينجيهم من كل عذاب، ليفوزوا بما أخبر عنه تبارك وتعالى من نعيم الجنان. مما يبين أن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وأنه يريد بعباده الخير، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ثم يعاتبهم الله تعالى، ويستنكر منهم هذا الاعتراف الذي لا ينتفعون منه بشيء، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾ كيف يتأتى لهم الاتعاظ والاعتبار والتذكر هذا الوقت ﴿ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾ وقد جاءهم من قبل رسول، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، جاءهم برسالة واضحة جلية بأنه رسول، ظاهر بالآيات والحجج، وموضح لهم طريق الحق، وطريق الضلال.

وقد ورد هذا الاستنكار عليهم بصيغة السؤال الاستنكاري، والتوبيخي لِمَا كان منهم من التكذيب والإنكار، ثم أصبحوا يقولونه اعترافاً عندما رأوا العذاب الأليم ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ﴾ من أين لهم التذكر والاتعاظ؟ كيف يتأتى لهم الاتعاظ والاعتبار والتذكر الآن؟ وقد جاءهم من قبل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بالحجج الواضحة البينة الظاهرة. فكفروا وطغوا، وطعنوا فيه، ثم يعترفون اليوم بما كان يجب عليهم من قبل. مما يدل على

أن حالهم هو حال ازدراء، وبما يفيد الوعظ والتحذير من أن يكون حالكم أيها الناس بهذه الهيئة. فأطيعوا الله وأطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم لتنجوا من العذاب.

ثم يخبر الله تعالى بما كان منهم مع رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تبارك وتعالى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾ ثم بعد أن جاءهم الرسول بالرسالة الظاهرة الواضحة بالحجج والبراهين تولوا عنه ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ أي: أعرضوا عنه وفارقوه، وانحرفوا عنه مُوَلّين ظهورهم له،. فدلالة ﴿ تَوَلَّوۡاْ ﴾ تفيد إظهار حالهم وحالتهم في الانصراف، بأنه كان إدباراً عن الحق، وكأنهم لا يأبهون به من قوة استكبار نفوسهم. وفي ذلك تأكيد الانصراف منهم بالتولي عنه. أي: ذهبوا عنه وتركوه، بحيث لا ينظرون إليه، كناية عن عدم تصديقهم له.

ووصفوه بصفتين سيئتين: الأولى: ﴿ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ ﴾ أي: عَلَّمَهُ غَيرُه من الناس. أي: أن أحداً من الناس يعلمه الذي يقوله من القرآن وغيره من السنة المطهرة، وأنه ليس من عند الله تعالى. بل وأفادت دلاة ﴿ مُعَلَّمٞ ﴾ أنه مكتمل التعليم، فقد أصبح ﴿ مُعَلَّمٞ ﴾ بارع. مما يفيد أنه بلغ من العلم والحجة قوتها، وهذا دليل على أنه عليه الصلاة والسلام كان بينهم قائم بالحجج والبراهين، مما جعلهم يصفونه بهذه الصفة التي قصدوا بها الذم، فكانت له شهادة منهم له، ومدحاً وثناء عليه صلى الله عليه وسلم، تبين قوة ما جاءهم به. وأما الصفة الثانية التي أوردوها هو أنه ﴿ مَّجۡنُونٌ ﴾ أي: فاقد العقل، أو فاقد الإدراك، وهنا يظهر تناقضهم، كيف أنهم وصفوه بأنه ﴿ مُعَلَّمٞ ﴾ وأنه ﴿ مَّجۡنُونٌ ﴾ حالتان لا تجتمعان. فهو ﴿ مُعَلَّمٞ ﴾ أي: تحقق فيه العلم والاستيعاب، حتى أجاد ما تعلمه من العلم، فتلقى ما يقوله بقوة وعناية، حتى برز فيه، وأظهره. ونقيضه أنه ﴿ مَّجۡنُونٌ ﴾ فهما صفتان لا يمكن أن تكون في الإنسان. مما يفيد قوة تناقضهم، لقوة الكذب والافتراء الذي كانوا عليه.

ثم يخبر الله تعالى بما كان منه من رفع العذاب عنهم، مبيناً أنهم لن يتعظوا، لقوة استكبارهم، فقال جَلَّ ثناؤه ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾ إنا بقوتنا وقدرتنا ﴿ كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ أي: رافعين عنهم العذاب زمناً ميسوراً قليلاً، بعد وجود موجباته وأسبابه وعلله، من كفركم، وعنادكم، ووصفكم له ولدينه صلى الله عليه وسلم بما لا يليق. وهذا يدل على أن عذاب الدخان خاص بما أصابهم من الجوع والقحط.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى أنهم لن يوفوا بعهدهم الذي أوضحه سبحانه وتعالى سابقاً، وهو ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾ فقال تعالى في هذه الآية مبيناً كذبهم ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾ فإنكم عائدون إلى ما أنتم عليه من الكفر، والعناد، ومحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مما يبين عظيم عِلم الله تعالى المسبق بما سيكون منهم قبل أن يكون، وأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وقدرة. ولكن بالرغم من علم الله تعالى بما سيكون منهم إلا أنه يعامل العباد بما تقتضي سنته، ويقتضي عدله سبحانه وتعالى من إقامة الحجج والبراهين على عباده.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى بيان عذابه سبحانه وتعالى في ذلك اليوم الذي توعدهم فيه، فيقول عَزَّ وجل ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ اتركهم أيها الرسول لذلك اليوم الذي نقتص منهم فيه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وهو الانتقام والأخذ التام لهم بقوة وشدة، والذي يهلكهم به لعظيم قوته وهوله. ليشمل بذلك ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة. ففي الدنيا، يوم غزوة بدر، لما حصل فيهم من كثرة القتل والأسر لكبرائهم وأعيانهم. وفي الآخرة ما يكون يوم القيامة من العذاب الذي يغشاهم مع بقية الكافرين. ليستوفي بذلك حال أحوال عذاب الدخان. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي هذا اليوم قولان: أحدهما: يوم بدر، قاله ابن مسعود، وأُبي بن كعب، وأبو هريرة، وأبو العالية، ومجاهد والضحاك. والثاني: يوم القيامة. قاله ابن عباس، والحسن. والبطش. الأخذ بقوة[1] فاستوعب النص الكريم كلا القولين، وذلك لرحابة دلالة البيان الكريم، الذي استوعب جميع الحالات التي يكون فيها العذاب منه سبحانه وتعالى.

ثم يقرر تبارك وتعالى لزوم الانتقام منهم ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فإنا قد قضينا بالانتقام منهم. فإن الانتقام منهم حاصل لهم، فقد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يجمع الله تعالى بين ذلك في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بما يستحقون من العذاب.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٤/٧)

بعد أن ذكر تبارك وتعالى شيئاً من عناد المشركين، وما توعدهم الله تعالى به، أردف ذلك بما تزداد به الموعظة أثراً وتأثيراً، حيث انتقل التوجيه الكريم إلى بيان جانباً من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، ليعظهم بما فيها من عظيم قدرة الله تعالى، وقوته وسلطانه، وقهره وعذابه الشديد للمجرمين. فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ يخبر الله تعالى بأنه قد ابتلى واختبر قوم فرعون من قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ قد اختبرنا وابتلينا قبلهم قوم فرعون، فكانوا لهم سلفاً يماثلونهم في التكذيب، وإنكار الحجج والبراهين. فقد جاء قومَ فرعون رسولٌ من الله تعالى كما جاءكم رسول ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ فكذبوه، فكانوا بذلك لهم سلفاً يماثلونهم في التكذيب، وإنكار الحجج والبراهين. فعليكم الاتعاظ بهم، فإنه خير لكم.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله موسى عليه الصلاة والسلام بأنه ﴿ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ كريم في تعامله، وصبره، وأسلوبه، ومنهجه، ففيه من المكارم ما زكاه الله تعالى به. وهذه منزلة عظيمة لموسى عليه السلام بهذه التزكية له من ربه سبحانه وتعالى. ومما يفيد كما أرسلنا لقوم فرعون رسول كريم فقد أرسلنا لكم كذلك رسول كريم مثله، تعرفونه تمام المعرفة بما اتصف به من كمال المكارم.

وقد بدأ البيان الكريم بحرف التحقيق والتأكيد المسبوق بلام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ليؤكد ما بعده من البيان الذي يجب أن يتعظوا به. ثم أخبر تبارك وتعالى بمرتكز الاتعاظ الذي يجب أن يتعظوا به، وهو ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ وهو الابتلاء والاختبار والتمحيص الذي يظهر به العاصي من المطيع ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ ﴾ ليفيد الاتعاظ بمن سبق، ثم عينهم وخصصهم بأنهم ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ فهو إخبار وإعلام لهم بما كان من قوم فرعون من التكذيب برسول الله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، الذي اتصف بأحسن الصفات التي تلزم ممن يتعامل معه أن يصدقه ويتأدب معه، وأن يسمع له، وأن يلتزم بما أنزل الله تعالى عليه من الآيات العظيمة. بما يفيد: وكذلك أنتم قد تعاملتم مع رسولكم الكريم بمثل من سبقكم، فاتعظوا خيراً لكم.

ثم يخبر الله تعالى بما قاله موسى بن عمران عليه السلام إلى فرعون وقومه ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أن أسلموا وأطيعوا أمري، وأدوا إليَّ بني إسرائيل، بأن تطلقوا سراحهم. وقد نعتهم الله سبحانه وتعالى بعباده ﴿ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ بياناً لمكانتهم عند الله تعالى، لأنهم في اضطهاد من فرعون وقومه،

يُقَتِّلُون أبناءهم، ويُبقون نساءهم خُدَّاماً لهم، كما يستعملون رجالهم في الأعمال الشاقة. فقال لهم موسى عليه السلام ﴿ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ ﴾ أن أطلقوا سراحهم بتسليمهم إليَّ. مُخبراً لهم بأنه رسول من الله إليهم ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ إني رسول من الله إليكم. أي: مخصوص لكم من الله تعالى. فالضمير في ﴿ لَكُمۡ ﴾ يفيد التعيين والتخصيص. لبيان العناية والأهمية. ثم يصف نفسه في شأن ما أُرسل به ﴿ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي: رسول مُؤتمن على الرسالة التي أرسلني الله تعالى بها إليكم. مما يعني عليكم بقبول دعوتي إليكم ونصحي لكم. لأن قوله لهم ﴿ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ تعطي وجهاً إضافياً، أي: أن أقبلوا إليَّ واتبعوني يا عباد الله. فقد ورد في معناها الوجهان. أحدهما: أدُّوا إليَّ ما أدعوكم إليه من الحق باتباعي. روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس، رضي الله عنهما. والثاني: أرسلوا معي بني إسرائيل. قاله: مجاهد، وقتادة[١] فمن غزارة تراكيب كلمات البيان، أن أعطت هاتين الدلالتين من غير تضاد، بل دلالتان متوافقتان. وهذا من الإعجاز البياني في صياغة كلام الرحمن سبحانه وتعالى. معللاً مطلبه بإثبات أمانته بما جاءهم به من الحجج العظيمة.

ثم يرشدهم وينصحهم بالاتباع وعدم التعالي على الآيات والحجج والبراهين ﴿ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ لا تتعالوا بالتجبر والتكبر على الله سبحانه وتعالى، ولا تمنعوا عما جئتكم به من الحق ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ فإني قد جئتكم بالحجة العظيمة، والتي سماها ﴿ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ أي: الحجة ذات الهيمنة التي تُرغم على التصديق والإذعان لها، لما فيها من القوة المبهرة. فهي الحجة التي تُلْجِئ إلى الامتثال والطاعة والاستجابة. وهي المعجزات التي جاءهم بها موسى من الله سبحانه وتعالى، كالعصا التي تسعى، وإخراج يده من جيبه بيضاء تتلألأ. فإنه جاءهم بسلطان مُتَّصِف بالإبانة والظهور والوضوح ﴿ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ واضح وظاهر وبائن بأن ذلك لا يمكن أن يكون من أفعال البشر، فهو واضح الدلالة التي لا ريب ولا شك فيه.

ثم استعاذ موسى عليه السلام بربه سبحانه وتعالى مما توعدوه به من القتل ﴿ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴾ وإني أعوذ وألوذ وألتجئ بربي من أن يحصل منكم رجمي بالحجارة من أجل قتلي. فقد استعان رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام بالله تعالى، ولجأ ولاذ بربه عَزَّ وجل من أن يصيبه الشر منهم.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٥/٧) الشوكاني، فتح القدير (٥٧٤/٤)

وأعلن ذلك لهم ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ ليبين لهم معرفته بما قد يكون منهم من قتله بالحجارة. كما أن في ذلك بيان بأنني قد احترزت بالله تعالى من أذاكم، فلن تستطيعوا إلا بما كتبه الله تعالى عليَّ. ليظهر بالشجاعة القلبية التي يستمدها من حفظ الله تعالى له. مما يعلم المؤمن كيف يلوذ بالله تعالى، وكيف يحفظ نفسه من الأخطار، ومن مكر الماكرين. فيستعيذ بالله تعالى من كل شر.

ثم يوجههم إلى المتاركة إن لم يصدقوه ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَاعْتَزِلُونِ ﴾ فإن لم تؤمنوا بما جئتكم به من الآيات، ولم تُقروا بنبوتي ورسالتي إليكم من الله تعالى ﴿ فَاعْتَزِلُونِ ﴾ فلا تتعرضوا إليَّ بأذى، فبيننا المتاركة، بأن تكونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل عنكم، فلا تتعرضوا لي بأذى، ولا أتعرض لكم بأذى. حتى يقضي الله هذا الأمر ويحكم فيه بما يشاء.

فلما طال مقامه بهم، مع ما معه من حجج الله تعالى، من غير استجابة منهم له، فكانوا كافرين به، ومنكرون له، فلم يؤمنوا به وبرسالته عليه الصلاة والسلام، فهنا التجأ إلى الله تعالى بالدعاء ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ إن هؤلاء، أي: فرعون وقومه متصفين بالإجرام، الذي يفيد قوة الامتناع والكفر. فالتجأ إلى الله تعالى بعدما كفروا به، فاتجه بالدعاء الذي يحمل عظيم الشكوى منهم ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ واقتصر في الدعاء على ما وصفهم به من الإجرام ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين، لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم(١) فاختصر دعاءه عليه الصلاة والسلام في بيان حالهم الذي اتصف بالإجرام. الذي هو التعدي على الحق، بإنكاره ورفضه.

فبادره الله سبحانه وتعالى بالاستجابة، فأمره بالخروج إلى جهة البحر ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ فأمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يسري ببني إسرائيل ليلاً. والسري هو الذهاب ليلاً. ثم أخبره بما سيكون من فرعون ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده، أي: يطلبونكم، للقبض عليكم. وهذا إخبار من الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون، بالرغم من أنهم سيخرجون ليلاً، والناس نيام. ليعلم الإنسان قوة تدبير الله تعالى، وعظيم علمه بما سيكون قبل أن يكون، وبما يفيد الحذر، مع الإخبار بأن الله تعالى معكم بعلمه وقدرته، فلن يتمكنوا منكم أبداً.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٧٤/٤)

ثم يأمر الله تعالى رسوله موسى عليه الصلاة والسلام بشأن البحر، كيف يتعامل معه، وما يجب عليه أن يقوم به، فقال تعالى ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ أي: إذا تجاوزت البحر ومن معك، فاترك البحر ساكناً على حاله التي كان عليها حين دخلته، ليبقى الممر الذي سار فيه موسى عليه السلام ومن معه كما هو، سالكاً واسعاً. فإذا ضربته بعصاك فانفلق سيكون البحر في هدوء وسكون، فاتركه على حالته التي هو عليها حين سلكته. بما يفيد لا تضربه مرة أخرى ليعود كما كان، لأن الله تعالى أراد أن يتبعهم فرعون وجنوده فيغرقهم فيه.

وفي هذا النهي ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ ما يفيد أن الله تعالى قد سخر البحر لموسى عليه السلام، بحيث لو قام بضرب البحر بعصاه مرة أخرى، لعاد البحر إلى سابق حاله، فانغلق البحر، ليكون ذلك المسار الذي كانوا يسيرون فيه. فالنهي لموسى كليم الله تعالى عليه الصلاة والسلام مع عظمة قوة البحر دليل على أن الله تعالى إذا سخر شيئاً لأحد، جعله طواعية له. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في معنى ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي: واتركه ساكناً كما هو على حاله بعد أن انفرق لك. ولا تأمره أن يرجع كما كان، حتى يدخله فرعون وجنوده[١] ليعلم الإنسان أن العطاء من الله تعالى، وأن التمكين الحقيقي هو التمكين الذي يكون من الله عَزَّ وجل، وأن الله تعالى إذا مَكَّن أحداً سخر له القوي، وجعله طواعية له.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وذلك أن موسى عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه[٢] فقد بين الله تعالى لموسى العلة من تركه البحر رهواً، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ أي: إن فرعون وجنوده مُغرقون، بما يبين: أن في ترك البحر رهواً ساكناً هو من أجل أن يتابعكم فرعون وجنوده، ثم ينطبق البحر عليهم. بما يؤكد ويبين أنهم لن يصلوا إليكم، فبمجرد دخولهم المسلك الذي سلكتموه في البحر، سيعود البحر كما هو مضطرباً بالأمواج، فيغرقهم أجمعين. وقد دبر الله عَزَّ وجل الأمر، وأخبر بما سيكون من شأنهم، وبما حكم به عليهم، وما سيكون من حالهم قبل أن يكون. ليعلم الإنسان أن الله تعالى هو الغالب على أمره، وأن الماكر والظالم مهما بلغ به الدهاء والجبروت، فإنه مهزوم من الله تعالى. وأن على المؤمن أن يلتجئ إلى الله سبحانه وتعالى أمام كل قوة تواجهه، فإن كان الله

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٥/٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥٢/٤)

تعالى معه فلن يهزمه أحد، ولن ينتصر عليه أحد، وأن الباطل والمبطلون مهزومون أمام سلطان وقهر الله تعالى. فإن قوة الله تعالى وسلطانه وتدبيره أعظم من أن يتخيله أحد من الخلائق.

ثم يذكر تبارك وتعالى ما كان فيه فرعون وقومه من الإنعام والفضل الذي سخره الله تعالى لهم، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر، وقبول الآيات والحجج من الله تعالى، بل قابلوه بالكفر والاستعلاء. فقال عَزَّ وجل ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ما أكثر ما تركوه خلفهم في الدنيا من عظيم النعيم. فلقد خرجوا مِن نعمة الجنان، وعيون المياه إلى الهلاك والغرق. فبدأ الله تعالى بذكر نعمتين عظيمتين: ألأولى: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ ﴾ وهي البساتين والمزارع الكثيرة والكبيرة التي على ضفاف نهر النيل في مصر. وكذلك أخرجهم ربهم تبارك وتعالى من نعمة أخرى، وهي النعمة الثانية العظيمة: وهي نعمة تدفق المياه وجريانها، وسماها عَزَّ جل بالعيون ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وهي المياه الجارية، والمتدفقة من باطن الأرض، وكذلك خلجان النيل، وما يُحفر على فروع النيل.

بل إن من قوة بيان كثرة الخير والإنعام والنعيم الذي كانوا فيه أن الله تعالى ابتداء البيان بحرف ﴿ كَمْ ﴾ من قوله تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ ﴾ والتي أفادت المبالغة في كثرة ما تركوا خلفهم من النعمة، التي استعاضوا عنها بالهلاك، لما كان منهم من عدم شكرهم لله تعالى وطاعة رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وبما يفيد: أي: اتعظوا بمن كان قبلكم أيها المشركون، وانتبهوا أيها الناس من أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فاستقيموا وأطيعوا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما النعمة الثالثة العظيمة التي أخرجهم الله تعالى منها فهي نعمة الزروع ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ فخرجوا وتركوا الزروع، التي تشمل أنواع النَّبْت الأخضر المزروع. وهو كل ما زُرع من الأشجار والنباتات الكثيرة والمتنوعة. وقد ورد تسميتها ﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ بما يفيد التكثير والتنوع مع قوة المبالغة في ذلك، لكثرتها وتنوعها. ثم ذكر تبارك النعمة الرابعة الشاملة، فقال تعالى ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ وكذلك كم تركوا من الأمكنة الكريمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم. من الدور والقصور والمساكن الفارهة التي كانوا يقيمون وينعمون فيها بأرض مصر. وقد وصف الله تعالى مقامهم بالكريم ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ لكرامته بما حوى مما ينعم به المقام، الذي توفرت فيه جميع ما يحتاجه المقيم من الأثاث والأسرة، والبساتين والزروع، والمياه المتدفقة، والأموال الكثيرة، مما يدل على نفاسة المكان، ونفاسة المقام، وكثرة الرفاهية. وبما يدل على كريم عطائه سبحانه وتعالى لهم من الخيرات، التي كان الأولى أن يشكروا ربهم عليها بطاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله موسى عليه الصلاة والسلام الذي أرسله

الله تعالى إليهم بالحجج والبراهين، ولكنهم قابلوا النعمة بالكفر والجحود، فكان جزاء كفرهم هو مفارقة النعمة، وحلول العذاب، بالهلاك والغرق في البحر. ليعطي الله سبحانه وتعالى بها موعظة جليلة وعظيمة لكل العباد على مدار الأزمان، بما حوته من عظيم العبر.

ثم بعد التفنيد لأعظم النعم يُجمل سبحانه وتعالى بقية إنعامه عليهم ببيان عظيم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴾ فقد كانوا في نعمة متنعمين ومتقلبين فيها من كثرتها وتعددها، وكثرة تنوعها، بما يفيد سعة الرخاء الذي كانوا فيه، فإن دلالة النعمة ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ تجمع كل عطاء من الله تعالى، بما يفيد التنوع والكثرة إلى درجة أنهم ﴿كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴾ أي: متنعمين، منعمين، متقلبين فيها من كثرتها وتنوعها، ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ فَـٰكِهِينَ ﴾ تشمل السرور من قوة التنعم والتلذذ. وتجمع كذلك دلالة ﴿ فَـٰكِهِينَ ﴾ التفكه بالفاكهة من الثمار. فهي جامعة لانبساط النفس وانشراحها من قوة التنعم الذي كانوا فيه. مما يبين ويؤكد أن الإنعام هو من الله سبحانه وتعالى. فينعم على من يشاء بما يشاء. كما يدل على أن واجب مَن أنعم الله تعالى عليه أن يكون كثير الإقبال على طاعة الله تعالى، وأن من أسباب حفظ النعمة هو شكر الله تعالى عليها، وطاعته عَزَّ وجل. وأن من أسباب زوال النعمة البطر والأشر، والمعصية. وفي هذا موعظة من الله تعالى للعباد، بما يدفعهم به إلى طاعته سبحانه وتعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى بمآل ذلك النعيم، وانتقاله للذين كانوا مستضعفين عندهم من بني إسرائيل، فقال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَـٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ فالأمر والشأن أنه بمثل ذلك سلبناهم ما كانوا فيه من النعمة والنعيم. فإن جميع تلك الجنان والعيون والكنوز قد أورثناها ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ أي: بني إسرائيل. فهكذا أخرجنا فرعون وقومه من الجنات والنعيم الذي كانوا فيه فاكهين، منعمين، مترفين، إلى العذاب المهين، وأورثناها بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وقومُه. فأصبح المستضعفون هم العالين، والْمُنَعَّمين هم الْمُعَذَّبين.

ومن دقائق البيان أن جملة ﴿ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَـٰهَا ﴾ تشمل الأوجه التي تستوعب حالهم في الهلاك بعد التَّنَعُم. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: الأمر كذلك. ويجوز: أي: مثل ذلك السلب سلبناهم. وقيل: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها. وقيل: مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم[1] فاستوعب بناؤها تلك الدلالات المتظافرة، مما يدل على قوة الإعجاز البياني في القرآن الكريم، باستيعاب سياقه لكل الأوجه المراد بيانها، من غير

(1) الشوكاني، فتح القدير (٥٧٥/٤)

حاجة إلى تعدد تكرار السياق بألفاظ وبناء متعدد ومتكرر. فسبحان الله العظيم في كلامه وإنعامه، وانتقامه، وعظيم تدبيره، وعظيم قدرته، وعظيم عطائه.

وبهذا البيان الكريم من الله العزيز الحكيم ما يستوجب أخذ العبرة على مستوى الأمة والمجموعة، والفرد، من أن الله تعالى ينصر المظلوم، ويهلك الظالم، وينصر المؤمن المحق، ويهلك الكافر الظالم، وأن العز والملك لله تعالى، ينزعه ممن يشاء، وكيف شاء، ويعطيه من يشاء، وكيف ما يشاء سبحانه وتعالى. فمراقبة الله تعالى وطاعته هي مسلك النجاة، وأن معصية الله تعالى هي طريق الشر والدمار، والعقاب في الدنيا والآخرة. فما قَصَّ اللهُ سبحانه وتعالى قصص من سبق إلا للعبرة بمن سبق، والاتعاظ بها.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بحقارة فرعون وقومه، من خلال بيان عدم اهتمام واكتراث جميع الخلق بهم، سواء عند أهل السماء، أو أهل الأرض. فقال تعالى ﴿ **فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ** ﴾ فما بكت وأشفقت عليهم السماء والأرض بهلاكهم، لأنه لم يكن هناك شيء من الأعمال الصالحة التي يستدعي أمرها وشأنها بكاء أهل السماء والأرض على فقدها، من الطاعة لله تعالى والإحسان، فيبكي من أجلها عليهم أهل السماء وأهل الأرض. فلا شيء يفتقد برهم وطاعتهم. مما يفيد المبالغة في عدم الجزع. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والمعنى أنهم هُلكوا فلم تعظم مصيبتهم. وقال كذلك: أنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم لأجله، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح. فتبكي. وقال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً[1] وبالتالي فلن تبكي على الكافرين، لأن ليس لهم على الأرض من أعمال الطاعة لله عَزَّ وجل فتبكي بها عليهم. وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما. هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم. إنه ليس على الأرض مؤمن يموت إلا بكى عليه ما كان يصلي فيه من المساجد حين يفقده، وبكى عليه من السماء الموضع الذي كان يُرفع منه كلامه[2] مما يبين قوة تفاعل مخلوقات الله تعالى مع الطائعين لربهم. بينما لا يجد الكفرة من يفقدهم من مخلوقات الله تعالى، وإنما الفرح والسرور بنهايتهم، لما كان منهم من الإجرام والمعاصي.

وكذلك من شدة لومهم من الله تعالى أنه لم يؤخرهم ويؤجل لهم عن ذلك اليوم الذي أهلكهم فيه. فقال تعالى ﴿ **وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ** ﴾ فلم يكونوا متروكين ومؤخرين بالعقوبة التي أهلكناهم بها، بما يفيد التعجيل بها لفرط كفرهم، بما يدل على أنهم قد أغضبوا ربهم سبحانه وتعالى بما كان منهم، وبدعاء موسى عليه الصلاة والسلام

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٩٣-٩٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٤١-٤٣)

عليهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾ فاستجاب الله تعالى دعاءه، وشدد عليهم العقوبة. ليفيد الحذر من معصية الله تعالى، ووجوب الطاعة والامتثال، وإدراك عظيم قدرة الله تعالى.

﴿ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وبعد أن أغرق الله تعالى فرعون وجنوده في البحر يذكر تبارك وتعالى إنجاءه لبني إسرائيل مع موسى عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾ يخبر الله عَزَّ وجل عن كمال وعموم إنعامه على بني إسرائيل، بأن أنجاهم من فرعون، إذ أهلك عدوهم، وأنجاهم مما أهلك به عدوهم، وأخرجهم بذلك من جميع ما كانوا يعانون منه، من الاستعباد، ومن قتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، بإبقائهن للأعمال والخدمة في الأعمال الشاقة.

ثم بعد تعميم الإنجاء يخصص ويعين سبحانه وتعالى هذا الإنجاء بأنه ﴿ مِن فِرۡعَوۡنَ ﴾ لبيان شدة ما كانوا فيها من الضنك، والاستعباد والإذلال الرهيب، فيصفه سبحانه وتعالى بما يستحق من الوصف ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ فأول وأقبح صفاته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا ﴾ متعالي في التكبر، والاستعباد لغيره، والتجبر والتغطرس على الناس، فكان في تكبره ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ أي: بلغ فيه المجاوزة والإفراط والإكثار من التعالي، بالتكبر والاستعباد لغيره بالقهر والإذلال، بما يفيد المبالغة فيما كان فيه من التعالي، وما يتبع ذلك من التباهي والكفر، ورد الحق، وإنكار ما جاءه من الله تعالى مع رسول الله موسى عليه الصلاة السلام.

ثم يخبر الله تعالى باصطفائه واختياره لبني إسرائيل على زمانهم، فقال تعالى ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ولقد اخترنا بني إسرائيل من بين الأمم في عهدهم على معرفة وعلم منا بهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معناها: لقد اخترنا بني إسرائيل على علم منا بهم، على عالمي أهل زمانهم

يومئذ، وذلك زمان موسى عليه الصلاة والسلام. قال قتادة رحمه الله تعالى: أي: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، ولكل زمان عالم [١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى عن تفسير دلالة الآية الكريمة: لقد اخترناهم، يعني بني إسرائيل، على علم منا بهم، لكثرة الأنبياء منهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم، بدليل قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وهذا قول قتادة وغيره. فيكون قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: بعد بني إسرائيل[٢] مما يبين أن بني إسرائيل كانوا في زمانهم خير الأمم، إذ هم أتباع يعقوب عليه الصلاة والسلام، وكانوا على دين الله تعالى. فأصبحت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خير الأمم إلى أن تقوم الساعة. فمن تبع هذا الدين الحنيف دخل في الخيرية. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين كذلك كما أمر ربنا وشرع سبحانه وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى سبب وعلة ذلك الاصطفاء في ذلك الزمان، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ فقد جاءهم منا من العبر والعظات والمعجزات، ما يبين أنه اختبار مبين في ظهوره وتمحيصه. قال قتادة رحمه الله تعالى: أنجاهم الله تعالى من عدوهم، ثم أقطعهم البحر، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. وقال آخرون ابتلاهم بالرخاء والشدة[٣] وقد وصفه سبحانه وتعالى بأنه ﴿بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ واضح وظاهر، ليتبين كيف يعملون. مما يبين أن الله تعالى يمحص العباد، والأمم، بالخير والشر، فينظر كيف يعملون مع دين الله تعالى وشريعته التي شرعها وبينها لهم، أيلتزمونها ويشكرون حال الرخاء؟ ويصبرون ويطيعون حال الشدة؟ وكيف يكون حالهم أمام فتنة زينة الحياة الدنيا؟ حتى يُحاسب كل بما كان منه، وما الله بظلام لأحد من عباده سبحانه وتعالى. فليس من عدله أن يجعل المسلمين كالمجرمين.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى كفار قريش، باعتبار أن قصة فرعون مذكورة لهم ولمن بعدهم.. فقال تعالى ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ إن هؤلاء المشركين ليقولون في شأن البعث بعد الموت ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ ليس الموت فينا بني البشر إلى الموتة الأولى ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي حصروا الموت فقط في موتة واحدة، وهي التي يموتونها الإنسان في الدنيا، وبالتالي ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين بعد الموت، وبالتالي نفوا الحساب، والجزاء، والجنة والنار. فأصبح فهمهم للحياة هو: العمل فيها

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦/٢١)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٥/١٦)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧/٢١)

كيف يشتهون، فلا ضابط لتصرفاتهم إلا خوفهم من بطش بعضهم لبعض، وما يكون بينهم من العادات والتقاليد. مما يبين نعمة الإيمان، وأثره في ضبط النفس والسلوك، حتى في الخلوات والانفراد بالنفس عن الناس.

ثم يحتج هؤلاء المنكرين للبعث بعدم عودة من سبقهم ممن مات من الآباء، فقال تعالى عنهم: أنهم قالوا ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: أرجعوا وأعيدوا لنا آباءنا السابقين لنا بالموت إن كنتم صادقين فيما تقولون عن البعث. وحقيقة البعث أنه لا يحصل في الحياة الدنيا، بل بعد أن يُفني الله تعالى عباده. فهذا الاعتراض منهم هو مجرد احتجاج من غير قاعدة صحيحة، إذ لا يتناسب مع يوم البعث وحقيقته الذي وعد الله تعالى به، والذي عين موعده بأنه يوم القيامة. كما أن هذا المطلب منهم ليس من اختصاص الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا المؤمنين حتى يطالبونهم بأن يأتوا بآبائهم السابقين.

ثم يهددهم الله تعالى بالمقارنة بمن سبقهم من قوم تُبَّع الذين أهلكهم الله تعالى، فقال عَزَّ وجل بصيغة السؤال الاستنكاري، الذي يحمل دلالة الوعيد والتهديد ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ أهؤلاء المشركين خير من حيث قوتهم وقدرتهم أو قوم تبع الحميري الذين كانوا من قبلهم، من الأمم السالفة الكافرة بربهم، فأهلكهم الله تعالى مع قوة ما كانوا عليه. فليس هؤلاء بخير ممن سبقهم فنصفح عنهم ولا نهلكهم بكفرهم وبغيهم كما أهلكنا قوم تُبَّع.

ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أن الله جَلَّ جلاله قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أهؤلاء المشركون يا محمد من قومك خير أم قوم تبع الحميري[١] وقال الجوهري رحمه الله تعالى: والتتابعة ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع. وقال القرطبي رحمه الله تعالى بعد أن أورد الأقوال في ذلك: والظاهر من الآيات أن الله سبحانه وتعالى إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشد من معرفة غيره. ثم ذكر رحمه الله تعالى: أن تُبَّع كان واحداً بعينه، وهو والله أعلم: أبو كرب، الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لَمَّا أُخبر أنها مُهاجر نبي، اسمه: أحمد[٢] ولذلك روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها نهت عن سبه، كما ذكر ابن جرير الطبري: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تبَّعاً، فإنه كان رجلاً صالحاً. وقال كعب: ذم اللهُ قومه، ولم يذمه[٣] مما يدل على أن المقصود به قومه. فقال تعالى ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ فقد أهلكهم الله تعالى لما كان من إجرامهم مع ما كانوا عليه من القوة. وفي هذا تهديد لهم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩/٢١)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٧/١٦)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩/٢١)

بما كانوا يعرفون من شأن قوم تُبع. وبما يفيد أنكم أضعف حالاً منهم، وأنكم لم تبلغوا ما بلغوا من القوة، فإن هلاككم لا يعجزنا كما لم يعجزنا هلاك من كانوا أكثر منكم قوة. فاعتبروا بمن كان قبلكم.

ثم يذكر سبحانه وتعالى عظيم حكمته في عظيم مخلوقاته، وعظيم سلطانه، وجلال تدبيره في خلقه، وحكمته، بما يستوجب منهم الطاعة والانقياد لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ فكل ذلك الخلق العظيم من السماوات والأرض منفي عنه العبث، ومنفي عنه أنه بلا غاية ولا هدف. ولا لتحصيل نتيجة. ففي نفي اللعب قطع جازم بأن هناك غاية وحكمة فيما خلق جَلَّ جلاله. بما ينفي عنه العبث والباطل والفساد والإهمال نفياً قاطعاً. فإنه نَفْيٌ مِن أن الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض وما بينهما بغير الحق. فأثبت بذلك للعباد أن خلق الكون كائن بالحق، الذي هو ضد العبث. بل ورد البيان بأسلوب الحصر والقصر للخلق الذي ينفي به للعب، فيثبت له به الحق فقط ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ فإنه عَزَّ وجل لم يخلق السماء والأرض وما بينهما عبثاً؛ من غير هدف ولا غاية حكيمة، ولا فائدة، بل إن الله سبحانه وتعالى خلقها بالحق، لهدف وغاية وحكمة عظيمة، وتدبير حكيم. مما يفيد أنه خلقها عَزَّ وجل ليعرف العباد بها قدرته ووحدانيته وربوبيته وألوهيته سبحانه وتعالى، ولتكون حجة على الناس، وليعتبروا بذلك كله. وأن الذي خلق هذا الكون العظيم قادر على فناء ما خلق، وإعادته مرة أخرى، ومن ذلك البعث والنشور بعد الموت، ثم الحساب والجزاء. وأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

ومن جميل البيان أنه سبحانه وتعالى أورد السماء بصيغة الجمع ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ باعتبار تعددها. وأفرد الأرض باعتبار الدنو، والأسفل، والتحت. ليشتد الانتباه إليهما. ثم ذكر ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بالرغم من أن كل ما ارتفع فقد سمى، إلا أنه سبحانه وتعالى أخرج ما بين السماء والأرض وأظهره تحديداً بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وذلك لإخراج وإبراز تعدد السماوات، وإظهارها من بين جميع ما ارتفع عن الأرض وسما، ليحصل الالتفات والانتباه لسعتها وعلوها، وعظمتها، وكذلك للفت الانتباه إلى كل ما عَلُقَ بين السماء والأرض. فاستقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، واستقلت عن الأرض فلم تثبت عليها. وليفيد كذلك التقرير والمبالغة في التخصيص. فإن ما بين السماء والأرض من مخلوقات لا يعلم عددها وأنواعها إلا هو سبحانه وتعالى، سواء مما يراه الإنسان من الأعيان والأجرام، والمتحركات، أو ما يسمعه من الأصوات، كالرعد، وصوت الرياح، أو يحسه كالهواء، فإن كل ذلك ملك لله تعالى. وأنه بالرغم من أن كل ما ارتفع عن الأرض فقد سما، وهو داخل في مفهوم السماء، إلا أنه قد تم تخصيصه وتعيينه بالذكر.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والسماء كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، والسماء: المطر، سُمّي به لنزوله من السماء[١] وفي هذا التخصيص شَدُّ انتباه للمُخَاطَبين، ولفتةٌ كريمة للعباد نحو التأمل والتدبر في عظمة مخلوقات الله تعالى التي نزلت بقدرة الله تعالى عن السماء، وارتفعت عن الأرض، فاستقلت بنفسها بين السماء والأرض، وليتأمل العباد عظمة المخلوقات التي تدل على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى. ليتأملوا في السماء وعلوها، والأرض ونزولها، وما فوق الأرض، وما في باطنها، وما يجري عليها وما يخرج منها من المياه والنبات. وكذلك النظر والتأمل والتدبر في مخلوقات الله تعالى السَّيَارَة بين السماء والأرض، فاستقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، واستقلت عن الأرض فلم تثبت عليها.

وكل ذلك الخلق العظيم منفي عنه أنه بلا غاية ولا هدف، بل للحكمة التي تم ذكرها وإيضاحها منه سبحانه وتعالى. كما دلت لفظة ﴿ لَٰعِبِينَ ﴾ المنفية بما قبلها من البيان ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ أنها نفت العبث عن تدبير الله تعالى، بل نفت كل هدف وغاية لا حكمة منها في خلق هذا الكون العظيم، وفي إثبات نفي اللعب دلالة على أن هناك حكمة وغاية لهذا الخلق العظيم. بما يُوضح للعباد أهمية النظر والتأمل لهذا الكون من خلال الحكمة، والغاية العظيمة التي بينها الله سبحانه وتعالى في كتابه القرآن العظيم، وجاء بها الرسول الكريم، ومن قبله جميع المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

وبعد نفي العبث من خلق الكون يؤكد سبحانه وتعالى أن ما خلقه من السموات والأرض وما بينهما فهو بالحق المنافي للباطل، والذي يثبت أن هناك هدف وغاية وحكمة من خلق ما خلق سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وما خلقنا السموات والأرض إلا بالحق المنافي للباطل، ليفيد وجوب التفكر في هذا الخلق ودلائله، وعدم إغفال عقول العباد عن التدبر فيما خلق الله سبحانه وتعالى من السماوات والأرض، وما في ذلك من الدلائل العظيمة الكثيرة، التي توضح وتبين لهم أن الله تعالى خلق خلقه بالحق، وليس بالباطل، الذي ينتفي معه الهمل والإهمال لما خلق.

فإن البيان الكريم يفيد أهمية النظر والتأمل بالبصيرة العاقلة، بما يحقق الاهتداء، وذلك بِسَوق الفكر إلى أن هذا الملكوت لا يكون إلا لمن خلقه، وهو لله تعالى الخالق المدبر، وأن ما فيه من الدقة دلالة على أنه ليس للعبث، بل لإقامة الحق وفق ما شرع. مما يستوجب عليهم التأمل في حجج ربهم تبارك وتعالى، وفي رسالة الله تعالى، ونبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فواجب العباد التفكر والانتفاع بنعمة التفكير التي أنعم الله تعالى بها عليهم. فإن استخدام التأمل يقودهم إلى الحق، وإلى متابعة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من الكتاب المبين، والإرشاد العظيم. فإن التفكر يعيد العقل للصواب، ويتقوى به إيمان المؤمن،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٥١)

ويستدل به الكافر على وحدانية الله تعالى، وربوبيته وألوهيته، ونفي الشريك والولد، وتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به جَلَّ جلاله.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بمعنى: فأكثر الناس لا يعلمون ما يعلمه أهل الايمان. وهو استثناء الأكثر جهلاً من الأقل عدداً، الذين اتصفوا بالعلم من أهل الايمان والتصديق، وهم المؤمنون، فأكثر الناس لا يعلمون ما يعلمه أهل الايمان. فقرر السياق والبيان بحرف ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ تقرير علم أهل الايمان، وتصديقهم بما يأتي من عند الله تعالى، ونفى بذلك عن أكثر الناس الذين هم أهل الكفر من أن يتحقق فيهم العلم الذي أعلم الله تعالى به الناس. ففي ذلك مدح للمؤمنين بتصديقهم، وتشنيع وذم الكافرين على جحودهم. كما أفاد البيان الكريم أن الأكثرية من الناس أنهم أهل كفر. فإن أغلب الناس وأكثرهم قاصرون في علمهم، فلا يتجاوزون ما هو متعلق بمعاشهم. فإن مقدار علم أكثر الناس هو الظاهر من الحياة الدنيا، فيعلمون الظاهر منها، كأمور المعاش، ووجوه مكاسب الحياة الدنيا وأرباحها، وما يتعلق بالمسكن والتجارة والتكسب، ومطالب حياتهم من المعيشة، وما تقتضي طبيعة الحياة البشرية من مطالب العيش وتدبيره، وما يتعلق بالتنقل والأسفار، ونحوه.

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

بعد أن أخبر الله تعالى بدلائل عظمته مما خلق من السماوات والأرض، وما يجب على الإنسان من العلم الذي يحقق به نجاته، يخبر سبحانه وتعالى عن يوم القيامة. فيقول تبارك وتعالى ﴿**إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ**﴾ إن هذا اليوم الذي هو ﴿**يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ**﴾ هو موعد جمعهم، حين يفصل الله فيه بين العباد، ويتم فيه الحكم بين الخلائق، ويفصل فيه بين المؤمن والكافر، وهو اليوم الذي فيه تمترون وتكذبون وتنكرون، فإنه ﴿**مِيقَٰتُهُمۡ**﴾ أي: موعدهم، ووقت وزمن وحال ومكان اجتماعهم مع بقية العباد جميعاً ﴿**مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ**﴾ أولهم وآخرهم، فلا يغيب ولا يتأخر منهم أحد عن ذلك اليوم. فإنه هو اليوم

الذي يتمايز الناس فيه، فيظهرون للحساب والجزاء. لأن الفصل يكون بالحساب ثم الجزاء، فينفصل فيه أهل الطاعة والإيمان بما فازوا به، وينحدر فيه أهل الكفر والنفاق بما كان منهم. فقد كانوا ينكرونه ويكذبون به في الدنيا. وفي هذا عرض واضح من الله سبحانه وتعالى لِمَا سيكون من حال المكذبين في الآخرة، بما يفيد أن عليكم أيها المكذبون باغتنام حياتكم الدنيا، فآمنوا بما رأيتم من الحجج والآيات التي تتعايشون معها في الدنيا، من خلق السماء والأرض وما بينهما، والكواكب، ومن تعاقب الليل والنهار فإن الذي خلقكم وخلق هذا الكون قادر على كل شيء، ومنه البعث والحساب والجزاء. فآمنوا واتبعوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه خير لكم.

ثم يصف الله تعالى ذلك اليوم وصفاً جلياً للعباد، بما يحفزهم للطاعة، واجتناب المعصية، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ فذلك اليوم الذي هو ﴿ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ فإنه ﴿ لَا يُغْنِي مَوْلًى ﴾ لا ينفع قريب ولا حليف ﴿ عَن مَّوْلًى ﴾ عن قريبه وحليفه ﴿ شَيْـًٔا ﴾ بأي نوع من النفع، مهما كان ذلك النفع، بما يفيد المبالغة في انتفاء النفع ولو كان قدراً يسيراً. فلا ينفع قريب قريباً له أبداً. ثم يزداد البيان تأكيداً، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ولا حتى يتناصرون، ويتعاونون على نصرة بعضهم لبعض، فلا يستطيع أن يمنع بعضهم عن بعض شيئاً من عذاب الله تعالى. فنفى بذلك سبحانه وتعالى كل ناصر يود أن ينصر أحداً ممن يواليهم ويوالونه. فجميع الموالاة التي كانت في الدنيا ينقطع نفعها بين العباد إلا من استثناهم الله تعالى برحمته، كما قال عَزَّ وجل ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ باستثناء من عمتهم رحمة الله تعالى، وهم المؤمنون، بما يفيد: أنه يؤذن لهم في الشفاعة لمن يستحق الشفاعة.

ثم يذكر تبارك وتعالى عزته التي جمع معها رحمته جَلَّ جلاله. فقال جَلَّ شأنه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فإن ربكم هو لا غيره ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، ومع ذلك فإنه سبحانه وتعالى هو ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ المتصف بالرحمة لجميع الكائنات، ولجميع العباد بما أنعم به عليهم من النِّعَم، وبحلمه عليهم، وبرحمته لمن تاب وأناب إليه تبارك وتعالى، فهو الرحيم بعباده المؤمنين سبحانه وتعالى. وفي الجمع بين العزة والرحمة ما يَظهر به أنه مع كمال العزة التي هي لربكم أيها العباد فإنه مع ذلك رحيم بالمؤمنين الذين استثناهم بالشفاعة التي يأذن بها ربكم سبحانه وتعالى يوم الحساب والجزاء.

وقد بدأ مطلع البيان الكريم بنون التوكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ الذي التحقت بضمير الإشارة لمقامه سبحانه وتعالى، ثم حُصر الاسم والصفة الكاملة التامة من العزة والرحمة له فقط دون غير ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ﴾ سبحانه

وتعالى. فليس لغيره عَزَّ وجل شيء من العزة، ولا يملك أحدٌ شيئاً من الرحمة لغيره. فإنه سبحانه وتعالى هو الذي يملكها فقط. فليس لأحد غيره إلا بما يمنحه لعباده الذين اصطفاهم بالرحمة ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ بما يفيد عليكم بموجبات تحقق رحمة ربكم عَزَّ وجل، وذلك بطاعته سبحانه وتعالى في الدنيا لتحظوا بما يناله أهل الرحمة من عباده الطائعين لربهم جَلَّ في علاه. وفي هذا ترغيب شديد للعباد بالطاعة، وتحذير لهم من ذلك اليوم. وهذا من رحمته تبارك وتعالى إذ يبين لعباده ما هو كائن يوم القيامة قبل أن يكون، فينذرهم ويرغبهم في العاقبة الحسنة، ويحذرهم من العاقبة السيئة. فالحمد لله رب العالمين.

ثم ينتقل البيان الكريم في تدرج بديع إلى جزاء الكافرين، ببيان طعامهم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ التي هي الشجرة التي أنبتها الله تعالى في جهنم، فإنها ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ أي: هي طعام الفاجر. وقد ذكر الله تعالى تفصيلاً لها في سورة الصفات. فقال تعالى ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: أن مخرجها من قعر جهنم، فأصلها في منتهى إلى قعر جهنم، وترتفع أغصانها إلى أعلى جهنم ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ وأما ما يطلع من ثمارها فإنه يشبه رؤوس الشياطين. وورد التشبيه برؤوس الشياطين، مع عدم معرفة الإنسان بصورة وشكل الشياطين، للترهيب بامتداد خيال الإنسان إلى أقصى ما يستطيع من تصور بشاعته. فيكون الوصف لذلك هو من باب الاستقباح والتهويل، وذلك لقبح الشياطين، ومن ذلك رؤوسهم. وليستغرق الخيال في القبح إلى أقصاه، ويتخيله في أبشع ما يكون في خيال الْمُخَاطَب. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه قد استقر في النفوس قُبح الشياطين، وإن لم تُشاهَد، فجاز تشبيهها بما قد عُلِم قُبحه[1] فهو أسلوب بديع في استثارة الفكر. وهو مماثل لما يستعمله الإنسان في الخيال عند الوصف لأمور يريد تهويلها.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما يكون من أهل النار مع هذه الشجرة الخبيثة ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ فبالرغم من بشاعتها، ومرارتها إلا أن أهل النار يملؤون بطونهم منها، لما يجدون من شدة الجوع، ولا يجدون غيرها، على كراهتها وعلى كرههم لها. ليفيد شدة العذاب الذي هم فيه. فإنه عذاب من كل وجه. ليفيد التحذير من الكفر ومسلكه، ومآل صاحبه ونهايته.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٨)

ثم وصف الله تبارك وتعالى حال شجرة الزقوم عندما تحل في بطون أهل النار، فقال تعالى ﴿ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴾ أي: إنها عندما تحل وتصل إلى بطونهم فإنها كالرصاص المذاب، والزيت العكر، الشديد الحرارة، مما يبين قبح لونها، وشكلها ورائحتها. إذ أن الْمُهل، هو ما أُذيب من مكونات الأرض بالنار، كالحديد والرصاص والنحاس، والسوائل الثقيلة كالزيت العكر ﴿ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴾ يفور تقلباً من شدة حرارته في بطون أهل النار ﴿ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ كما يغلي الماء الساخن. فالحميم هو الماء الساخن الذي يتقلب من شدة حرارته. ونسأل الله تعالى العافية، والنجاة من النار لنا ولجميع المسلمين إن ربنا هو الغفور الرحيم.

ثم يأمر الله تعالى خزنة جهنم، بما يقولنه لأهل النار ﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ خذوا هذا الفاجر الأثيم ﴿ فَٱعۡتِلُوهُ ﴾ أي: قودوه بالعنف الشديد ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي: إلى وسط النار. لأن دلالة ﴿ سَوَآءِ ﴾ تفيد الوسط، أي: وسط الشيء. وسُمّيَ الوسط سواء، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب(١) مما يدل على شدة العذاب لأهلها الكافرين.

ثم يُقال لخزنة جهنم من الملائكة الكرام ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ فصبوا وأهرقوا فوق رأس هذا الأثيم ﴿ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ وهو الماء الشديد الحرارة ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ فتقول له خزنة جهنم من الملائكة ﴿ ذُقۡ ﴾ أمراً له، وإهانة له، بما تحمله من أدق معاني الإحساس ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ ذق هذا العذاب بعد أن كنت ترى نفسك في الدنيا أنك العزيز المتعزز والمتكبر على ما جاءك من الحق، فقد كنت تتعزز وتتعالى على الحق، وعلى المرسلين، وعلى دين الله تعالى.

ومن دقائق البيان أنه يُعَيَّن من باب التوبيخ ﴿ إِنَّكَ ﴾ ثم يؤكد له ما يُهان به ﴿ أَنتَ ﴾ الذي كنت تتعزز بنفسك ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ وما كنت تدعي به من أنك أنت ﴿ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ أي: أكرم أقومك، وأنك الكريم عليهم، فتترفع عن طاعة من أرسله الله تعالى إليكم. فها أنت اليوم ذليل حقير.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٦)

ثم يزداد التوبيخ بقول الملائكة لهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴾ فهذا الذي أنتم فيه من العذاب، هو الذي كنتم به ﴿ تَمۡتَرُونَ ﴾ تشكون فيه في الدنيا. وغير مصدقين به، وتنفون وتكذبون من أنكم ستبعثون وتحاسبون. فها أنتم قد بُعثتم، وها أنتم قد حاسبكم ربكم، وها أنتم اليوم تأخذون جزاءكم بما تستحقون. وفي هذا بيان لحال الكافرين في الآخرة، بما يحذر به العباد أجمعين. لينتقل بعده البيان الكريم إلى حال المتقين.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد بيان حال الكفرين في الآخرة، وما في ذلك من الوعيد للمجرمين الضالين بما يستحقون من العذاب والطرد من رحمته سبحانه وتعالى ينتقل البيان العظيم من الله سبحانه وتعالى إلى الإخبار بحال المتقين.

فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴾ إن الذين اتصفوا بالتقوى، واجتهدوا في اتقاء ما يُغضب الله تعالى، واجتهدوا في طاعته عَزَّ وجل بالسعي في رضاه، فإنهم في الآخرة ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴾ في إقامة من المكان والمنزل والمنزلة التي هي الجنة، والذي وصفه سبحانه وتعالى بأن هذا لمقام هو مقام ﴿ أَمِينٖ ﴾ فقد أمِنُوا فيه من الموت ومن العذاب ومن الخروج منه. وقد بدأ وصف حال المتقين بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يفيد ثبوت ما سيكونون فيه من النعيم، وجاء السياق على وجه التحقق، فلم يكن على صيغة المستقبل، بالرغم من أن هذا عائد إلى الآخرة التي سيعودون إليها مستقبلاً ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴾ فورد الوصف لحالهم وكأنه قد تحقق، إمعاناً في التأكيد، والتشويق والاطماع والترغيب لهذا الإنسان بأن يكون من المتقين، فأعطى السياق قوة في تظافر الإعجاز البياني مع الإعجاز الدلالي، وأفاد النص الكريم عظمة منزلة المتقين التي يجب أن يتسابق لها العباد.

ومن مزيد وصفها، ووصف حالهم فيها، أنهم ﴿ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ في حدائق من البساتين وأنواع الزروع الكثيرة والمتنوعة، وما جعل الله تعالى فيها من العيون التي تتدفق عليهم بالمياه. ومن جميل البيان

أن وصف سبحانه وتعالى الأنهار بالعيون، وهي الينابيع التي ينبع منها الماء، ثم يجري كالنهر. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل[١] وفي ذكر العيون ما يدل على أن الأنهار منبثقة في جريانها من ينابيع متعددة، حيث جاء وصفها بصيغة الجمع ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ الذي يفيد الكثرة والتعدد والتنوع.

ثم يصف تبارك وتعالى ملابس هؤلاء المتقين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ فيلبسون أنواعاً ﴿ مِن سُندُسٍ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثياب رفاع رقاق، كالقمصان وما جرى مجراها، وأما ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فغليظ الديباج، وفيه بريق[٢] وأما هيئة جلوسهم مع بعضهم البعض فإنهم ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ بحيث ينظر بعضهم إلى بعض. فيجلسون على سرر متقابلين فيما بينهم. فإن من مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم الاجتماع. قال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسرَّة تدور كيفما شاؤوا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر[٣] مما يبين كرامتهم، وأن أهل الجنة يتقابلون، ويجتمعون، ويجلسون مع بعضهم البعض في أدب من المقابلة التي لا يتدابرون فيها. وهو فضل من الله تعالى عظيم، مما يستوجب السعي الحثيث في طاعته تبارك وتعالى. كما يفيد ذلك أن من آداب الجلوس هو عدم التدابر، بأن لا يعطي الجالس قفاه وخلفه لغيره، بل يكون الجلوس مقابلة، ما أمكن ذلك، إلا أن تكون هناك ضرورة وحاجة.

ومن مزيد النعيم الذي يجده المتقون عند ربهم هو قوله تبارك وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ وكذلك أكرمناهم بأن زوجناهم ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ والحور هن نساء الجنة الموصوفات بجمال البياض النقي، مع سعة العيون. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: والحور: اللاتي يحار فيهم الطرف. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: الحور هو نقاء البياض. كما قيل للنقي البياض من الطعام: الحُوَّارَى[٤] وكذلك من مزيد نعيم أهل الجنة أنهم ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ أي: يُؤمر لهم بإحضار ما يشتهون من الفواكه، وهم ﴿ آمِنِينَ ﴾ من كل ألم أو سقم، أو أثر يعترضهم مما يأكلون، ويجمع كذلك الأمان من كل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢/١٠)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٧/٣)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/١٠)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥/٢١)

مشقة، ومن كل هم أو غم. فلا يتخلل النصب والتعب إليهم على ما هم فيه من رغد العيش، فإنهم في مأمن من كل خوف ووجل. وفي إثبات هذا الأمن ما يؤكد نفي كل أنواع ودرجات الخوف، مهما كان قليلاً أو كثيراً. فالخوف معدوم لا حقيقة له عند أهل الجنة، فحياتهم سلام دائم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ذلك الأمن، وذلك الخلود في النعمة التي لا منقصات فيها أبداً بقوله عَزَّ وجل ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فلما أن الموت يقطع النعمة، كما كان الموت في الدنيا، فإن الله سبحانه وتعالى ينفي عن أهل الجنة الموت أبداً ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ لا يذوقون الموت أبداً ونهائياً. فأكد لهم ذلك النفي بما يعرفونه من موتة الحياة الدنيا ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ التي حصلت لهم في الحياة الدنيا، وبما يفيد: أنه لا موت لهم بعد تلك الموتة أبداً. فهو استثناء يؤكد النفي القطعي أبداً. ثم يزداد التطمين لهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وأن من فضله تبارك وتعالى على المتقين أنه أبعدهم عَزَّ وجل بفضله وكرمه عن عذاب ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: عن عذاب جهنم. فهم في وقاية وأمان من أن ينالهم شيء من عذاب الجحيم، لما كان منهم من تقوى الله تعالى في الدنيا. مما يفيد الترغيب في تقوى الله تعالى، وذلك بالحذر من عقابه.

ثم يذكر تبارك وتعالى كريم امتنانه بما تفضل به من هذا الفضل على أهل الجنة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فإنما هذا فضل عطاء من ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على أهل الجنة. فإنما هم فيه من هذا النعيم هو بتفضل من الله تعالى عليهم ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ﴾ فإن اندفاع العذاب عنهم وحصول النعيم لهم، هو بتوفيق الله تعالى لهم، وبكرمه الذي تفضل به عليهم. ثم يُعَيِّن ويشيد سبحانه وتعالى بهذا الفضل، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فإن ذلك الكرم الذي حصل عليه أهل التقوى ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ هو المكسب الحقيقي، والظفر والفوز العظيم الذي ليس هناك أعظم منه من الفوز، بما كان منهم من طلبه وابتغائه في حياتهم الدنيا.

ومن تعظيم هذا الفوز أن الله تعالى أشار إليه باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لإظهار وإبراز التعظيم له، ثم بالضمير ﴿ هُوَ ﴾ ليفيد هو لا غيره، ليعطي دلالة التخصيص، أي: تخصيص الفوز العظيم بما نالوه من هذا الجزاء العظيم الذي تفضل الله تبارك وتعالى به عليهم. ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الدخان بآيتين عظيمتين.

فقال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإنما يسرنا هذا القرآن العظيم بلغتك العربية أيها الرسول، والهدف والغاية من ذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لكي يتعظوا بما فيه من الأمثال والمواعظ، فينزجروا عما هم عليه مقيمون، فيطيعوا ويؤمنوا. وقد تضمنت جملة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ما يفيد التحفيز لأن دلالة ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إذا كانت من الله عَزَّ وجل فإنها تفيد التحفيز والاستنهاض للمخاطبين بما خاطبهم ووعظهم الله تعالى به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لعلهم يتعظون، وينزجرون عما هم عليه من الكفر، فيتحفزوا وينهضوا عن كفرهم إلى الحق، فيتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعونه. ولعل المخاطبون بهذا البيان من الناس أن يهتدوا بما تم ضربه لهم من الأمثال والمواعظ، والترغيب والترهيب، ويتذكروا نعمة البيان الجليلة، فيصححوا أفكارهم، وينهضوا للحق، والتمسك به. ويقوموا بما فيه من الهدى والحق، ويشكروا ربهم على ما هداهم إليه بكتابه وبهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان الكريم أن خص الله تعالى هذا التيسير للقرآن بجعله بلسانه صلى الله عليه وسلم، إذ أفاد حرف ﴿ فَإِنَّمَا ﴾ القصر الذي يُظهر قوة الحجة وتيسيرها. فإنما يسرنا وسهلنا للناس طريق فهمه بهذا اللسان العربي الفصيح، الذي هو بلسانك العربي الذي تتحدث به إليهم. وفي ذلك إبراز وإظهار التواؤم والتوافق بين لغة القرآن وبين لغة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين من نزل فيهم القرآن. وبما ينفي كل عذر يصد عن فهمه، وبما يؤكد أن ليس لهم العذر في عدم قبوله والإيمان به، لقوة حجته.

ثم يقول تبارك وتعالى مختتماً به سورة الدخان في خطاب لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ فانتظر ما وعدناك به أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ وهو أمر يفيد جميع ما وعد الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم من النصر والظفر، ومن هلاك من عاداه، ووقف ضد دعوته. وكما أنك تنتظر ما وعدناك به من الحق الذي سَيُظهره اللهُ تعالى على الدين كله، فبالمقابل ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ فهم يترقبون ما يحصل بك. فهي تشمل ترقبهم للرسول صلى الله عليه وسلم بالهزيمة كما يظنون، وتشمل ترقبهم له الموت، وترقبهم له بالرجوع عن دعوته. وتشمل أنهم سيعلمون لمن يكون الظفر والنصر في الدنيا والآخرة. وفي هذا ما يفيد التطمين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه، وتهديد لهم، من أن الرسول ثابت على ما جاءكم به، ومنتظر نصر الله تعالى كما أنتم تنتظرون الشر به صلى الله عليه وسلم ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ وأن ترقب الرسول صلى الله عليه وسلم معه معية الله تعالى، وترقبكم لا قوة لكم فيه ولا معية ناصرة لكم، بما يفيد لمن تدبره أن مَرَدَّ ترقبكم هو هلاككم. فعليكم بالطاعة خير لكم.

تم بحمد الله وفضله إتمام سورة الدخان، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.